الأديانُ والتَّطلُّعُ إلى السَّلامِ

جينياديوس ساسيما(*)

باستقراءِ النَّظرِ في حالِ عالمنا اليومَ نجدُ أنفسَنا نعيشُ حالةً متفرِّدةً جدًا، في ظلِّ ظروفٍ مُفجِعةٍ بل مثبطةٍ للعزمِ، إذ تمتدُّ جذورُ العُنفِ والحروبِ والظُّلمِ والخوفِ، وكذا الأعمالِ الإرهابيَّةِ لتخيِّمَ بظلامِها على حياةِ شعوبنا.

ولذلك، فإنَّنا نواجهُ يوميًّا حقيقةَ غيابِ السَّلامِ، وازديادَ معدَّلِ الفقرِ ومعاناتنا الإنسانيَّةَ ممَّا يؤثِّرُ على حياةِ الشُّعوبِ.

ونحن نتساءلُ: ما علاقةُ إيماننا المسيحيِّ بالعُنفِ الَّذي نشهدُهُ في العالمِ؟ كيف نردُّ على العُنفِ بطريقةٍ متأصِّلةٍ في إيماننا وعلاقتنا باللَّه؟ في ظلِّ هذه العلاقةِ بإلهِ السَّلامِ والعدلِ- كيف نعيشُ السَّلامَ والعَدالةَ في حياتِنا وعملِنا بحيثُ يمكنُ أن تتحقَّقَ في حياةِ الآخَرِينَ، وفي مجتمعاتِنا، وفي عالمِنا؟

هذه بعض الأسئلة التي يطرحُها العديدُ من المؤرِّخينَ ورجالِ الدِّينِ وعلماءِ الاجتماعِ والسِّياسيِّينَ وكذلك النَّاسُ من مختلفِ الطَّوائفِ المسيحيَّةِ وغيرِها من المعتقداتِ الدِّينيةِ.

في ظلِّ عالمٍ يزدادُ تعقيدًا وعُنفًا، تآزرت عدَّةُ دياناتٍ -المسيحية والإسلام على وجهِ الخصوصِ- جنبًا إلى جنبٍ مع المجتمعاتِ الدِّينيَّةِ الأخرى، والأديانِ الحيَّةِ، والَّتي تعملُ لإحلالِ السَّلامِ كتعبيرٍ عن مسئوليَّتِها تجاهَ الحياةِ على الكوكبِ، وتستندُ هذه المسئوليَّةُ إلى الخيرِ الأساسيِّ المفطورِ في جميعِ البشرِ ومن جهةٍ أنَّ اللهَ خلقنا جميعًا، ويُنعِمُ علينا، ويقودُنا نحو الاتحادِ ونحو مستقبلٍ أفضلَ.

وبالنِّسبةِ للجميعِ، فإنَّ السَّلامَ يرتبطُ ارتباطًا بمفهومِ العدالةِ والحرِّيَّةِ الَّتي مَنَحَها الخالقُ لجميعِ البشرِ من خلالِ الخلقِ كهدِيَّةٍ ووظيفةٍ.

السَّلامُ وصنعُ السَّلامِ هديَّةٌ ووظيفةٌ من أجلِ توفيرِ فرصٍ لربطِ الشَّاهدِ الأخلاقيِّ والإيمانِ مع التَّحوُّلِ والتَّجديدِ الاجتماعيِّ، ولا تسمحُ الطَّبيعةُ الدِّيناميكيَّةُ للسَّلامِ كهدِيَّةٍ ووظيفةٍ باعتبارِها مساويةً للرُّكودِ والسَّلبيَّةِ وقَبولِ الظُّلمِ.

ويتطلَّبُ دورُ الأديانِ في ظلِّ ظروفِ العالمِ المعاصرِ اليومَ تجاوزَ كلِّ المظاهرِ المرَضِيَّة للتَّعصُّبِ الدِّينيِّ وعدمِ التَّسامُحِ مع الماضي، والَّتي ألقت بالعديدِ من البلايا على الإنسانيَّةِ، والَّتي هي غريبةٌ عن المهمَّةِ الرُّوحيَّةِ للأديانِ، وكذلك تقديمَ كاملِ الدَّعمِ للسَّلامِ والعدالةِ الاجتماعيَّةِ وحقوقِ الإنسانِ، والَّتي تدعو إليها تعاليمُ جميعِ الأديانِ بصُوَرٍ مُتفاوتةٍ، وهو ما يُشكِّلُ أساسًا مشتركًا لحوارِها البنَّاءِ مع الأيديولوجيَّةِ السِّياسيَّةِ المعاصرةِ فيما يتعلَّقُ بالعلاقاتِ بين البشرِ وبينَ الشُّعوبِ.

والخطابُ المستقِلُّ للأديانِ في علاقاتِها بأتباعِها، يؤكِّدُ القُدرةَ على التَّحمُّلِ التَّاريخيِّ للعلاقةِ الرُّوحيَّةِ مع مجتمعٍ قادرٍ على تعزيز مِصداقيَّةِ كلٍّ من ضرورةِ التَّطلُّعِ للسَّلامِ، ووعورةِ المسارِ المؤدِّي لتحقيقِ هذه الرؤيةِ، فعلى الإنسانِ المعاصرِ، المتعطِّشِ للحُرِّيَّةِ والسَّلامِ والعَدالةِ، أن يأخذَ بزِمامِ المبادرةِ.

أيضًا فإنَّنا جميعًا نقرُّ بأنَّ الأديانَ تعرَّضت من حينٍ لآخرَ لسوءِ المعاملةِ في الماضي لخدمةِ المصالحِ الدِّينيَّةِ والوطنيَّةِ والسِّياسيَّةِ -الَّتي ليست غريبةً على مَهَمَّتِها الرُّوحيَّةِ- والانحرافِ عن تعاليمِها والجرائمِ والفظائعِ الَّتي ارتُكبت بحقِّ الأبرياءِ.

ولذلك، فإنَّنا بصراحةٍ وبشكلٍ قاطعٍ ننبذ جميعَ أشكالِ العُنفِ والإرهابِ أو أيَّ عملٍ إجراميٍّ يُرتكبُ باسمِ الدِّينِ، وبالتَّالي نؤكِّدُ على إعلانِ الأديانِ أنَّ «جميعَ الجرائمِ الَّتي تُرتَكبُ باسمِ الدِّينِ هي جرائمُ ضدَّ الدِّينِ نفسِهِ».

وإنَّنا نوجِّه نداءً إلى القادةِ الرُّوحيِّينَ لجميعِ الأديانِ للقيامِ بالعملِ اللَّازمِ وتحقيقِ التَّعاونِ في نزعِ فتيلِ هذه الإشكالاتِ المحفوفةِ بالمخاطرِ، وبالتَّالي تعزيزِ مصداقيَّةِ إرادةِ اللهِ بسيادةِ السَّلامِ والعَدالةِ الاجتماعيَّةِ واحترامِ حقوقِ الإنسانِ الأساسيَّةِ.

ونوجِّهُ أيضًا نداءً إلى القادةِ السِّياسيِّينَ والفكريِّينَ لجميعِ الشُّعوبِ والهيئاتِ الدَّوليَّةِ للاستفادةِ من دَورِ المؤسَّساتِ الدِّينيَّةِ بصورةٍ إيجابيَّةٍ من أجلِ تحقيقِ السَّلامِ المحليِّ والإقليميِّ، وإيجادِ خطَّةٍ طموحٍ للتَّعليمِ من أجلِ السَّلامِ، بقصدِ مُعالجةِ تَجارِبِ الماضي المؤلمةِ، كما نحثُّ على تعاونِ جميعِ وسائلِ الإعلامِ المعاصرِ لتحقيقِ أوسعِ نطاقٍ ممكنٍ لهذه الخطَّةِ.

كما نؤكِّدُ عزمَنا الرَّاسخَ على مواصلةِ بناءِ الحوارِ بين الأديانِ على حدٍّ سواءٍ لتحقيقِ روحِ التَّفاهُمِ المتبادلِ والتَّعاونِ الصَّادقِ، وتعزيزِ هذه الروحِ في الشُّئونِ العمليَّةِ لمجتمعاتِنا المعاصرةِ متعدِّدةِ الثَّقافاتِ. لذلك، فإنَّنا نُقَدِّمُ دعمَنا الكاملَ لجميعِ المبادراتِ المشتركةِ بين الأديانِ والثَّقافاتِ الَّتي تسترشدُ بهذه الرُّوحِ.

ومهمَّتُنا اليومَ هي تقويةُ دورِ السَّلامِ والحوارِ والتَّسامُحِ في تطويرِ التَّعايشِ السِلميِّ بين المسيحيِّينَ وأهلِ الدِّياناتِ الأُخرى، المسلمين وغيرِ المسلمين على وجهِ الخُصوصِ، وبعضُ المفاهيمِ الغربيَّةِ المتَّصلةِ بالهُويَّةِ الوطنيَّةِ تربطُ بين التَّسامُحِ والخضوعِ لقِيَمِ الأغلبيَّةِ، ولكنَّ «التَّسامُحَ لا يعنِي التَّأثُّرَ بالآخَرِينَ أو الانضمامَ إليهم، فهو يعني قَبولَ الآخَرِينَ كما هم ومعرفةَ كيفيَّةِ الانسجامِ معهم». فالحوار يقوِّض خلافاتِنا مع بعضِنا البعضِ. ويهدُفُ هذا الحوارُ دائمًا لتطويرِ

هُويَّةٍ مزدوجةٍ جديدةٍ واحدةٍ ترتبطُ بالهُويَّةِ الدِّينيَّةِ والأخرى تعكسُ العضويَّة في أمة عَلمانيَّةٍ.
ويكمنُ دورُ الحوارِ بين الأديانِ في تعزيزِ التَّسامُحِ والهُويَّةِ العَلمانيَّةِ المشتركةِ فيما يتعلَّقُ بالهُويَّةِ الدِّينيَّةِ، ويجب أن يشتملَ الحوارُ بين المشاركين على مناقشةِ القِيَمِ والاحتياجاتِ وتقاليدِ كلِّ جماعةٍ دينيَّةٍ فضلًا عن إمكانيَّاتِ خلقِ مفهومِ هُويَّةٍ مشتركٍ يُرضي ويحترمُ قِيَمَ واحتياجاتِ جميعِ الطَّوائفِ الدِّينيَّةِ.
قد نعتقدُ أيضًا أنَّ هذه الصِّراعاتِ القائمةَ اليومَ تؤثِّرُ بالكادِّ علينا لأنَّنا نعيشُ بعيدًا جدًّا، ولكنَّها تؤثِّرُ. ومع ذلك، وعلى الرغمِ من هذه الاتِّجاهاتِ الحدِّيَّةِ، فاللهُ يريدُ منَّا أن نقفَ على الثَّغرِ ونكونَ صانعي السَّلامِ.
في الواقعِ، فإنَّ هذا الوضعَ يتيحُ لنا فرصةً لتبادُلِ أخبارِ السَّلامِ السَّارَّةِ، كما كُتِبَ في سفر إشعياء «ما أجملَ على الجبالِ أقدام الَّذين يجلِبونَ الأخبارَ السَّارَّةَ، الَّذين يُعلِنونَ السَّلامَ، والَّذي يُبشِّرون» (إشعياء ٥٢: ٧).
وفي الوقتِ الحاضرِ يشعرُ النَّاسُ بحاجةٍ عميقةٍ للسَّلامِ والَّتي هي بمثابةِ تذكيرٍ بأنَّنا يجبُ أن نأخذَ رسالةَ السَّلامِ هذه أينما ذهبنا.
فضيلتُكم والأخوة والأخوات الموقرون.
بما أنَّ اللهَ يحِبُّ السَّلامَ، فإنَّه ليس من المستغربِ أن يتكرَّرَ ذِكر هذا الموضوعِ في كتابات الأنبياءِ، خاصَّةً فيما يتعلَّقُ بخططِ اللهِ لإحلالِ السَّلامِ في هذا العالمِ المضطربِ، وفي الوقتِ نفسِهِ، صارَ موضوعُ السَّلامِ جذَّابًا بشكلٍ حدسيٍّ، لذلك دعُونا لا نخجلُ أو نخافُ من إشراكِ الناسِ في الحديثِ عن هذا الأمرِ. وينطبقُ هذا أيضًا على المسلمين، الَّذين يعتقدونَ أنَّ دينَهم سِلميٌّ.
وتختلفُ ديناميكيَّةُ الحوارِ بين المسلمينَ والمسيحيِّينَ، بسببِ العلاقاتِ التَّاريخيَّةِ فضلًا عن الأمورِ الدِّينيَّةِ والاجتماعيَّةِ والسِّياسيَّةِ الكُبرَى المختلفةِ بينهم، ويمكن أن يفهمَ المبادِرون المعاصِرون الحوارَ بين المسلمينَ والمسيحيِّينَ بصورةٍ أفضلَ في السِّياقِ الأوسعِ الَّذي يمكنُ أن ينشأَ من قِبَل نظرةٍ عامَّةٍ موجزةٍ على المواضيعِ المهيمنةِ في الحوارِ المسلمِ - المسيحيِّ؛ لأنَّ العالمَ يحتاجُ إلى السَّلامِ والعدالةِ والمصالحةِ لتحقيقِ صالحِ كرامةِ الجنسِ البشريِّ بغضِّ النَّظرِ عن خلفيتِهِ الدِّينيَّةِ والثَّقافةِ والعِرقِ واللَّونِ والهُويَّةِ الوطنيَّةِ.
كيف يمكنُنا أن نعيشَ وحدَنا على الرغمِ من خلافاتِنا؟ صحيحٌ أنَّنا نختلفُ عن بعضنا البعض، ونخوضُ غمارِ هذه التَّجربةِ في حياتنا اليوميَّةِ في أجزاءَ كثيرةٍ من العالمِ.

ومع ذلك، نحنُ متَّحدُونَ في كونِنا خلقُ اللهِ، حيثُ لكلِّ واحدٍ منَّا مكانُه ودورُه. كيفَ يمكننا أن ننكرَ حبَّ اللهِ الَّذي خلقَ هذا العالمَ لنا؟ نحنُ بحاجةٍ إلى بعضنا البعض لتبادُلِ الخِبراتِ والقِيَمِ الإنسانيَّةِ، حيثُ يمكنُ أن نجدَ منصاتٍ مشتركةً للتَّفاهُمِ في العديدِ من القضايا الَّتي تستحوذُ على انتباهِ وتركيزِ الجنسِ البشريِّ.
كيف يمكننا العيشُ في عُزلةٍ تامَّةٍ وهو ما يقودنا حتمًا إلى الموتِ؟ هناك حاجةٌ للحوارِ، لفتحِ قلوبِنا وعقولِنا لنرى بعضنا البعض وجهًا لوجهٍ مع بذلِ الاحترامِ والكرامةِ دونَ حدودٍ وأحكامٍ مسبقةٍ. هذا هو الوقتُ المناسبُ لوقفِ إجراءاتِ العُنفِ والأعمالِ الإرهابيَّةِ والصِّراعاتِ والحروبِ وإقامةِ جُسورِ السَّلامِ لتحقيقِ المصالحةِ والتَّغلُّبِ على آلامِ عداءاتِ الماضي.
كما نواجهُ اليومَ أيضًا الظَّاهرةَ المأساويَّةَ للَّاجئينَ الَّذين يُناضِلونَ من أجلِ مستقبلٍ أفضلَ لهم ولذويهم.
لكن لكي نفعلَ ذلك، علينا أن نعيشَ حُرِّيَّةً كاملةً، حُرِّيَّةً يمكنُ أن يحيا كُلُّ واحدٍ منَّا بحقوقٍ متساويةٍ وليست حقوقًا خاصَّةً، لأنَّنا جميعًا -أعضاءَ «البيتِ العالميِّ»- في بيتِ اللهِ الَّذي قدَّمه لنا من حُبِّهِ ونعمتِهِ الَّتي أسبغَها على البشريَّةِ جمعاءَ.
نحن بحاجةٍ إلى أصواتٍ قويَّةٍ يمكنها التَّحدُّثُ علنًا بصدقٍ واحترامٍ لأولئكَ غير المبالينَ أو لأولئكَ الَّذين ما زالوا في حاجةٍ إلى «تسويةٍ مؤقَّتةٍ» من أجلِ تعبئَتِها لإجراءِ حوارٍ بنَّاءٍ قائمٍ على الصَّداقةِ وبروحِ العملِ الجماعيِّ والأُخوةِ الإنسانيَّةِ.
وأخيرًا، يُمثِّلُ الحوارُ جهدًا جديدًا وكبيرًا للفهمِ والتَّعاونِ مع الآخرينَ من بُلدانٍ وأديانٍ مختلفةٍ، وقد تَطلَّبَ تجديدُ الحوارِ وغيابُ الوضوحِ المفاهيميِّ الخضوعَ للتَّجريبِ. وتحتاجُ قضايا التَّخطيطِ والتَّنظيمِ، والتَّمثيلِ، والموضوعاتِ دراسةً متأنِّيةً والتَّعاونَ في المستقبلِ.

***